

المجلد 09 / العدد 02 / ديسمبر (2025)، ص.ص. 439-450

كتابة الصحراء والمحكي ما بعد الاستعماري في رواية "صندوق الرمل" لعائشة إبراهيم Desert Writing and the Postcolonial Narrative in Aisha Ibrahim's "The Sandbox"

أحمد زعزاع
a.zazaa@univ-blida2.dz
جامعة البليدة-2- لوئيسي علي

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/11/01

فارس بركات*
elf.berkat@univ-blida2.dz
جامعة البليدة-2- لوئيسي علي
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2025/07/01

ملخص:

تقدم هذه الدراسة قراءة نقدية في رواية "صندوق الرمل" للروائية الليبية عائشة إبراهيم، وهي رواية ما بعد كولونيالية يمتزج فيها التاريخ بالذاكرة؛ ترصد الرواية فيها وقائع غزو الإيطاليين مدينة طرابلس، والعوامل التاريخية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية لهذا الغزو. نهدف عبر هذه القراءة إلى الوقوف على خصائص هذا السرد التخيلي الذي يتخذ من الصحراء فضاءً جغرافياً، وتبيان ما لهذه البيئة من حضور تاريخي في تصفية الاستعمار؛ ضمن فضاءها الحضاري: الجنوب الكبير. مع الإشارة إلى أنواع الكتابات ما بعد الكولونيالية، ومساءلات الذاكرة الجماعية الجنوبية فيها. وباستحضار موضوع الذاكرة: تقف الدراسة أيضاً على جدلية الاعتراف والصفح في الكتابة ما بعد الاستعمارية بين الشمال والجنوب. كلمات مفتاحية: أدب الصحراء، ما بعد الاستعمار، الجنوب الكبير، الذاكرة، الاعتراف.

Abstract:

This study offers a critical reading of the novel "The Sandbox" by the Libyan novelist Aisha Ibrahim. A postcolonial novel in which history intertwines with memory. The author chronicles the events of the Italian occupation of the city of Tripoli, examining the historical, psychological, economic, and social factors surrounding this occupation.

Through this reading, we aim to explore the characteristics of this fictional narrative, which takes the desert as its geographical setting, and to highlight the historical role of this environment in the process of decolonization within its civilizational framework: the Global South. The study also points to the various types of postcolonial writing and interrogations of southern collective memory within it. And by invoking the theme of memory, the study further addresses the dialectic of recognition and forgiveness in postcolonial writing between North and South.

Keywords: Desert literature; postcolonialism; global south; memory; recognition.

1. مقدمة:

لطالما كانت الصحراء مصدراً حقيقياً ومنبعاً خصباً للإلهام في تاريخ الكتابة العربية، منذ العصور الأولى إلى زمن ليس ببعيد. لقد شكلت صورةً شعرية وفضاءً سردياً، تتناغم فيها أصالة المكان مع بحث الإنسان وتعطشه لفهم أسرار الكون والطبيعة. تعبر نصوص الصحراء عن جبالها في تماهي هذا الإنسان مع قسوة المكان، وعن أسرها الساحر مع كونها فضاء عبور وترحال؛ فتمزج بين الكفاح والتحدى المتواصل، ضد البيئة نفسها، وضد الدخيل عليها. لا عجب والحال هذه أن تتسع كتابة الصحراء لتشمل مواضيع الكتابة المستجدة في العالم، حول التغيرات الاجتماعية والتحديات الاقتصادية، ومشاكل المهاجرين، وفنون ما بعد الاستعمار وأسئلة الأرض والهوية في الجنوب الكبير العالمي، وما للعولمة من آثار بارزة على التقاليد المحلية في هذه البيئة.

تمثل الكتابات ما بعد الاستعمارية أحد أهم المواضيع الحديثة التي يتطرق إليها أدب الصحراء؛ ففضاء هذه الأخيرة قد شكل ساحة مقاومة، وسجلها التاريخي حافل بالأحداث المرتبطة بالثورات. إن الجمع بين أدب البيئة الصحراوية الشمال إفريقية بوصفه سجلاً أنثروبولوجياً للمنطقة وتاريخها الثقافي والحضاري، وأدب ما بعد الاستعمار بوصفه مساهمة في إحياء الذاكرة ما بعد الاستعمارية الجماعية لسكان الصحراء، وبث الوعي التاريخي الذي يسمح لهم بفهم ما تمر به المنطقة من تغيرات على جميع الأصعدة، يعدّ من صميم ما يسميه الكثير من منظري النقد الأدبي والدراسات الثقافية في أيامنا هذه "أدب الجنوب الكبير"، أو "أدب الجنوب العالمي"، أو ما سمي سابقاً في ظروف مختلفة "أدب العالم الثالث".

ومن أحدث روايات الجنوب الكبير التي تدور أحداثها في صحراء شمال إفريقيا رواية "صندوق الرمل" للروائية الليبية عائشة إبراهيم؛ وهي رواية تعيد إحياء مجازر الغزو الإيطالي للساحل الليبي ومدينة طرابلس مطلع القرن الماضي، وتعيد قراءة الأحداث عبر كتابة الذاكرة الجماعية، مستعينة بالسجلات التاريخية الحقيقية للاحتلال. تقوم هذه الدراسة إضافة إلى رصد البيئة الصحراوية في الرواية؛ بقراءة نقدية فيها، معتمدة في ذلك على المقاربات ما بعد الكولونيالية للخطاب الأدبي من جهة، وتوظيف مقولات تصفية الاستعمار من جهة أخرى، وما يلحقها من تأملات أخلاقية حول تاريخ الاستعمار وتبعاته؛ قصد الإجابة عن عدد من الإشكالات التي تعدّ من صميم دراسات الجنوب الكبير، لعل أهمها: كيف يتم تسريد الصحراء في الأدب المعاصر؟ ما هي أشكال الكتابة ما بعد الاستعمارية؟ ثم كيف مثلت هذه الرواية تاريخ الجنوب الكبير في فضائه الصحراوي؟ وكيف عملت الرواية على مساءلة العنف الاستعماري الشمالي ضد سكان الجنوب؟ هذه الأسئلة وأخرى هي مدار البحث في هذه الدراسة، التي تعتمد بشكل أساسي على مقولات ما بعد الاستعمار، مدعومة بمفهوم "الصدى" و"العدو" للمفكر السياسي الألماني كارل شميت، وما يلحق ذلك من أسئلة الذاكرة حول الاعتراف والصفيح.

2. المحكي ما بعد الاستعماري في أرض الصحراء

2. 1. الصحراء في الأدب:

إن المتأمل في تاريخ الأدب العربي منذ نشأته، إلى يومنا هذا، يدرك حق الإدراك ما للصحراء من فضل وأهمية في العملية الإبداعية شعراً ونثراً؛ لقد شكلت لحظة الصحراء نقطة البدء في الأدب العربي، وها هي اليوم تشكل نقطة العود على البدء. تتعدد أغراض هذا العود؛ فبعضه يكون حيناً إلى سحر الإلهام الأول، وبعضه الآخر لإعادة مكانة هذا الفضاء الشاسع من جغرافيا المنطقة العربية أو شمال إفريقيا وتاريخها إلى أوج عطائه في الساحة الثقافية العربية، وبعضه قد انخرط في تيارات إبداعية عابرة للحدود، تعيد ترتيب العلاقة بين المركز والهامش، بين الشمال والجنوب، وبين المستعمر والمستعمرات. وقد تجتمع كل هذه الأغراض الثلاثة في عمل إبداعي واحد، فالأمر في النهاية يرجع إلى إمكانات القول في الموضوع المراد طرقة.

ولأن الرواية العربية المعاصرة قد قطعت شوطاً كبيراً في التجريب وأساليب التجديد، فقد أصبحت العودة إلى الصحراء كفضاء قديم، يُعاد اكتشافه من جديد، للتخيل، أمراً لا مناص منه حسب المزاج الأدبي العالمي الذي يعيد قراءة وكتابة ما تم قوله وفق تصورات جديدة تخضع لشرطيات زمنية مغايرة، ف"في كتابه الكلاسيكي (مشاهد في الصحراء الأمريكية 1982)، يشير الكاتب والمعماري البريطاني (بيتر راينر بانهم) إلى العلاقة الوطيدة بين الصحراء

والجماليات المعاصرة: (الصحراء، بشكل يمكن قياسه، تقدّم لنا فضاءً لا يمكن قياسه. لذا فهي بيئة ينبغي أن يشعر فيها 'الإنسان الحديث' وكأنه في موطنه الأصلي)¹. وهي إشارة ذكية إلى روح ما بعد الحداثة التي خيمت بظلالها على حياة الإنسان المعاصر، حيث لا نهائية التأويل، ولا نهائية الحدود، ولا نهائية التجريب؛ لتصبح الصحراء حينها اتساعاً جغرافياً تتبدد فيه الأبعاد والقياسات، تماماً مثل الفن المعاصر.

غير إننا إذا أخذنا بعين الاعتبار اللحظة النقدية الراهنة، سنجد أن النوع الأخير (أي الثالث) من أنواع هذه العودة الأدبية إلى الصحراء، هو الأهم والأكثر تأثيراً وإثارة للجدل، حيث يعاد ترتيب العلاقات الأنطولوجية؛ ما يسمح للمقاربات النقدية، ومنها دراستنا هذه، بطرح الأسئلة التالية: كيف يمكن لكتابة الصحراء هذه أن تسهم في إعادة رسم العلاقة بين الشمال والجنوب؟ بين المركز والهامش؟ بين المستعمر والمستعمر؟ إن هذه التساؤلات تدفعنا؛ إضافة للبحث عن أجوبة لها؛ إلى التأمل بشكل جاد في اتساع الموضوعات التي قد يطرقها أدب الصحراء، وعن تعدد الخلفيات التي تغذي هذا الأدب من التاريخ والاقتصاد والسياسة.

لقد تساءل أمبرتو إيكو من قبل: "كيف يمكن لنص مكتوب أن يضع شيئاً أمام أعيننا، كأننا نراه في الواقع؟"². يمكن أن تشكل الإجابة عن هذا السؤال، إذا تعلق الأمر بأدب الصحراء، جوهر الكتابة الصحراوية، التي تعمل أكثر من أي كتابة أخرى على أن تكون واقعية وصفية، بشكل لا يسمح لروايات اليوم أن تختلط بتلك التي شكلت النظرة السحرية الغربية حول صحارى الشرق. ما يريده الروائيون المعاصرون يتجاوز رؤية لحظة التفاعل الغربي المفتون بصحراء غامضة أخاذة؛ ومهمة الحكاء فيها، في غالب الأحيان، محصورة في استحضار مآسي الجنوب بسبب الشمال، ووصف عنف الإمبراطوريات الأوروبية في هذه البيئة الساحرة؛ التي ستظل شاهدة على ذلك جغرافياً، ووجدانياً عبر الذاكرة الجماعية لشعوب المستعمرات. ليس هذا فحسب، فأدب الصحراء لن يهمل الحديث عن أثر شركات النفط في المجتمعات الصحراوية (روايات عبد الرحمن منيف أمودجا). كتابة الصحراء المعاصرة إذن تمتاز بالواقعية ودقة التصوير، إنها أشبه بكشف أنثروبولوجي جديد يعيد قراءة الإنسان في هذه البيئة الجنوبية، لرصد التحديات الحاضرة، وإحياء الذاكرة الجماعية بالحديث عن الأزمنة السابقة: أزمنة الاستعمار، والعنف والدمار.

2. 2. الحكي ما بعد الاستعماري، من الذاكرة إلى الكتابة:

لطالما حاول السرد، بكل أشكاله، مواكبة التجربة الوجدانية لكل أمة من الأمم التي يعبر عنها. فليس بغريب أن تظهر في العقود الأخيرة روايات تعيد كتابة التاريخ متسلحة بأسئلة الحاضر وفلسفته، لأسباب مختلفة، مستعينة بالتخيل، وبرصيد لا ينضب من السجلات التاريخية المحفوظة بعناية في كتب المؤرخين. يمثل الأدب ما بعد الكولونيالي، أو ما بعد الاستعماري، أحد أهم هذه الأشكال التعبيرية الفنية المعاصرة، وكما يظهر من اسمه فإن "هذا الاصطلاح يملك دالتين اثنتين؛ أنه ظاهرة برزت (بعد) الاستعمار، وهو ظاهرة تعارض الاستعمار وتبعاته في العالم المعاصر"³. ومن ثم يحاول الروائيون عبر هذا النوع من الكتابة قلب سردية المستعمر، وإعادة إحياء مشاهد وحشيتها وتعريتها أمام أعين العالم، عبر خطاب الذاكرة والذي يمتلك تأثيراً كبيراً على القراء، ف"من يسترجع الذاكرة، يسترجع عملها؛ حيث يتذكر الأنا ما للماضي من أثر في وضعه الراهن. يظهر الأدب حسن فهمه للذاكرة، وفي الغالب يشير إليها بأنها سبب وجوده"⁴. تمثل الذاكرة إذن أهم محرك للكتابات المناهضة للاستعمار، بل للكتابة بشكل عام؛ وبفضلها يتم تسليط الضوء على مشاكل أخرى ترتبط في جوهرها بالذاكرة الجماعية لسكان الجنوب الكبير، كالهوية، والأرض، واللغة، والعلاقة بين الأنا والآخر في الفضاء الاستعماري. إن الذاكرة والحال هذه هي "جزء من ماضي الأمة ومن حداثتها على حد سواء، وعند اتحادها بالتاريخ، يصبح بالإمكان الحديث عن سياسة أدبية للهوية، قائمة على تغير مستمر، كالطرس الذي نعيد الكتابة فوقه. وهي بذلك تستمد قوتها أيضاً من مخيلة استشرافية، لتقويض السلطة الحالية... أو تأكيدها"⁵، لذلك فإن لموضوع الذاكرة أهمية قصوى في المشهد الثقافي، كونه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستقبل الأمة وماضيها.

وبالعودة إلى الذاكرة كأساس للكتابة الأدبية، يمكن أن نلاحظ وجود أنواع متعددة من كتابة ما بعد الاستعمار، بعضها يكون راديكالياً هدفه الأول تصفية الاستعمار، وبعضها الآخر يعيش نوعاً من الحنين إلى الفترة الاستعمارية. إن اللعبة الأساسية لهذه الأعمال الأدبية إنما تقوم على المزج بين التاريخ الرسمي والذاكرة الجماعية، لاستحداث سياسة أدبية جديدة للهوية أو تأكيدها. أو تعيد تشكيل الهايتوس المحلي إما لأجل المقاومة، أو للرجوع إلى سردية الاستعمار.

وسناقش ذلك بشيء من الراديكالية؛ عبر استعارة مفهومي "العدو" و"الصدق" من الفيلسوف السياسي الألماني كارل شميت:

أولاً؛ الحنين إلى الاستعمار وتشويه الذاكرة: تشكل بعض الأعمال الأدبية دعوة صريحة أو رغبة خفية للاحتفاء بالاستعمار وتمجيد آثاره، أو التغني بمنجزات المعمرين، وطمس التاريخ بتشويه الذاكرة الجماعية رغبة منها في العيش المشترك؛ رغم أننا نصنفها في أدب ما بعد الاستعمار. يحنينا هذا الوضع إلى النظر بعمق في مفهوم "الما بعد" في هذا المصطلح الأخير، فقد يحيل إلى الزمنية فحسب؛ ولا يجب أن تكون كل الأعمال الأدبية ما بعد الكولونيالية مناهضة للغرب الاستعماري. تعيد هذه الأعمال الأدبية صياغة أحداث تاريخية حقيقية أو حقب زمنية سابقة، في فضاء تخيلي يجمع المستعمر بالمستعمر في بيئة واحدة، تحت سماء استعمارية واحدة، تقدم للقارئ رواية أو نظرة أخرى للتاريخ، ملغية التاريخ الرسمي والذاكرة الجماعية. وتعمل على ما يمكن أن نسميه "أنسنة العدو"، أو بمفهوم أدق نزع فكرة "العدو المطلق" المتمثل في الاحتلال حال الحرب. يقول كارل شميت في كتابه الأهم "مفهوم السياسي": "ليس العدو مجرد منافس عادي أو حتى خصماً في نزاع بشكل عام. وهو أيضاً ليس الخصم الخاص الذي يبغضه الإنسان. ولا يوجد عدو حقيقي إلا عندما تواجه جماعة بشرية مقاتلة جماعة مماثلة لها. فالعدو هو دائماً العدو العام، لأن كل ما يرتبط بجماعة من الناس كهذه، وخاصة بأمة كاملة، يصبح عاماً بحكم هذه العلاقة"⁶. إن ما تحاول الأعمال الأدبية التي تحوّل إلى الاستعمار الوصول إليه هو إلغاء الصفة الأهم والأشد تأثيراً في كون الاستعمار عدواً للأمة والوطن بشكل عام؛ أو بتعبير شميت "جماعة بشرية مقاتلة". بالإضافة إلى قراءته تجزيئياً، وذلك عبر حيكات تخيلية تصوّر لإمكانات العيش المشترك معه في أرض واحدة؛ أو أن المعمرين أناس بسطاء ليسوا جزءاً من منظومة استعمارية إمبريالية، ضاربة بذلك عرض الحائط كل الحقائق التاريخية.

إن هذا النوع من السرد يرتكب في حق الذاكرة والتاريخ على حد سواء ما يسميه وحيد بن بوعزيز "انتهاكات الذاكرة"، وذلك عندما "تتلاعب جماعة ما بأحداث ماضية وتحاول الاستيلاء عليها بالطريقة نفسها التي تعامل التوتاليتاريون في الهيمنة مع الماضي... لكي تفتت ذاكرة مشتركة لصالح جماعة واحدة تريد السطو عليها"⁷. وتحنينا هذه الفكرة أيضاً إلى أن الأمر لا يقتصر على الأدب فحسب، فمجالات معرفية أخرى، كالتاريخ والفلسفة والسياسة والاقتصاد، ليست بمعزل عن هذه الجماعات المنتهكة للذاكرة باسم العيش المشترك أحياناً، وباسم الصفح أحياناً أخرى.

تختلف الأسباب التي قد تجعل روائي اليوم يقدمون الغرب الاستعماري في صورة الصديق المشفق في رواياتهم ما بعد الاستعمارية. قد يكون الأمر امتداداً لحالة الضعف النفسي التي أصابت الكثير من النخب في زمن الاستعمار، بسبب القوة الهائلة للتقنية الغربية آنذاك مقارنة بما تمتلكه شعوب المستعمرات الضعيفة؛ يثير الناقد الهندي بانكاج مبشرا هذه النقطة في كتابه "من تحت أطلال الإمبراطورية" عندما يصف الحالة النفسية لمثقفي زمن الاستعمار في دول العالم الثالث: "الواحد بعد الآخر، أظهر المصريون والصينيون والهنود ضعفهم، وبدا جلياً أنهم يفقدون الكفاءة اللازمة للعيش في عالم مغاير قد همّ الغرب بخلقه، لذا فقد وُضعوا أمام خيارين: الانضمام للغرب أو الاندثار. لقد كانت سيطرة أوروبا على آسيا تتجاوز الاقتصاد والسياسة والقوة العسكرية، لتشمل الروح والفكر والأخلاق: وجد الشرق فيها نفسه تحت نوع جديد من الغزو؛ غزو مؤلم، لكنه مدعاة للحسد تجاه الغرب. لينتهي بهم الأمر متحمسين للدخول في أسرار هذه القوة الساحرة"⁸. لقد فضّل بعض المثقفين الانصهار مع العدو وقوته، على الفناء بسبب عداوة الحرب. أو قد يكون ذلك بسبب الجوائز العالمية التي يمكن أن تمنح للروايات التي تساهم في بناء تصورات مستقبلية لإمكانية التسامح والعيش المشترك والقيم الإنسانية العالمية.

ثانياً؛ الديكولونيالية وتسريد الذاكرة: في كتابه "نظرية البارتيزان" أو "المقاتل غير النظامي" يخبرنا الفيلسوف السياسي الألماني كارل شميت: "في نظرية الحرب، يمنح التمييز في مفهوم (العداوة) للحرب معناها وطبيعتها. وكل محاولة لتحديد الحرب أو تقييدها يجب أن تضع في الاعتبار أن العداوة، بالنسبة لمفهوم الحرب، هي المفهوم الأساس"⁹. ولطالما كانت حروب التحرير والمقاومة على هذه الشاكلة، تحدد العدو بصفة دقيقة قصد إقامة ثورة ضده، أو قتاله في ساحات الحرب، كونه يهدد الأنا ويريد نفي وجودها. تلتزم الأعمال الأدبية الديكولونيالية جيداً بالعمل على إظهار العدو الحقيقي لشعوب المستعمرات. وكل فقرة تعبّر عن إدانة هذا العدو، والإشادة بالمقاومين في وجهه. لذلك فإنها تكون مشحونة

بالروح الثورية، وتتأجج فضاءاتها السردية بكرة العدو. وتبين كيف يتم تجريد شعوب المستعمرات من إنسانيتها حتى يكون القتل والدمار مبررا بشكل ما.

تلجأ هذه الأعمال في العادة إلى الذاكرة الجماعية لشعوب المستعمرات، من أجل إحياء وقائع تاريخية من زمن الاستعمار على ألسنة الشخصيات في فضاءات سردية محاكية لأماكن موجودة في أرض الواقع. أو قد تلجأ إلى حدث من الحياة اليومية ذكرته كتب التاريخ دون التركيز عليه، وتحويله من بعده اليومي عبر تنويره عاطفياً وفكرياً، والتأمل في عواقبه إلى بعد آخر يخدم السرد التاريخي ما بعد الاستعماري، "ذلك أن حادثة سير مثلاً قد تخرج من دائرة اليومي لتتحول إلى ظاهرة ترميية بفعل اكتسابها صفة الأثر، بما تحدثه من تبدلات في هوية الحد مستقبلًا، أو حين تنكتسي صبغة الحيلولة".¹⁰ وسنعالج في دراستنا هذه كل هذه الأشكال بإسقاطها على موضوع الرواية.

تختلف أشكال الكتابة الديكولوجية من مكان لآخر في دول الجنوب الكبير، ولا يمكن حصرها في اللعب على عنصر الذاكرة فحسب؛ فبعضها يكون بالعودة إلى التقاليد الشفهية والاجتماعية، وتطويع الأشكال السردية المعاصرة لتتسع لها "مثل استعمال الأداء الشفهي والملمحة في كتابة الرواية الهندية، أو الأمثال والمقولات الشعبية في أدب غرب إفريقيا، ولكل مستعمرة شكل خاص من الكتابة يستمد من تقاليد المنطقة... فالعودة إلى الفنون التقليدية التي وجدت قبل الاستعمار لها أهمية بالغة في تطوير أدب محلي، وتعبير عن الانتاء والثقة في فترة ما بعد الاستعمار"¹¹. يمكن أن نلاحظ مما سبق ما للهوية من أثر في المقاومة الثقافية ضد الاستعمار؛ والذي ركز بدوره على محو كل آثارها من الحياة العامة أو على الأقل توجيهها ثقافياً نحو تبعية فكرية لكل ما هو غربي. يستغل أدب الصحراء هذا الجدل بشكل جيد لتصوير الهوية الصحراوية الجنوبية في مقاومة المد الشمالي.

2.3. الصحراء، من الفضاء الفسيح إلى "صندوق الرمل":

تصور رواية "صندوق الرمل" للكاتبة الليبية عائشة إبراهيم، الصادرة عن منشورات المتوسط بإيطاليا، سنة 2022، فترة مهمة من تاريخ ليبيا الحديث وذلك إبان الاحتلال الإيطالي مطلع القرن الماضي، معتمدة في ذلك على وثائق تاريخية وشهادات حية، تعيد استحضارها ضمن حبكة سردية ترسم بها أهم الأسباب خلف هذا الاحتلال، ووحشيته على الأرض مع الليبيين، معارضة الفكرة الجاهزة في السجلات الغربية حول احتلال أرض لا شعب لها، أو جلب المدينة والحضارة لشعب بربري دون حضارة، "إذا كان بالإمكان خلق سردية تجعل التاريخ قابلاً للتغيير خدمة لمشروع إمبريالي، فإنه من الممكن أيضاً كتابة أخرى خدمة لرؤية ما بعد إمبريالية"¹². هذا الممكن الأخير يمثل أحد أهم التحديات التي يواجهها الجنوب الكبير في السنوات الأخيرة، فالاعتناق من الامبريالية الاستعمارية لا يعني كمال الاستقلال، من دون وجود قاعدة سياسية وثقافية صلبة تمنح حصانة من الوقوع في الأشكال الجديدة من الاستعمار. تعمل الأعمال الأدبية إذن على إيجاد تغيير ثقافي في الوسط الاجتماعي لبلدان الجنوب عبر إعادة قراءة التاريخ مع الشال العالمي، ورسم تطلعات العلاقة معه مستقبلاً.

يمثل العنوان أحد أهم العتبات النصية في الرواية، ليس لأنه أول ما يواجهنا من الرواية فحسب، بل لأنه قد يشكل اختصاراً كاملاً لكل الرواية في عبارة مركزة قليلة الكلمات، يشوق القارئ أكثر للدخول في عالم النص، وبهذا الصدد يقول الناقد الأمريكي دايفيد لودج في كتابه (فن الرواية): "العنوان مكون رئيسي في النص؛ المكون الأول فيه، إنه في الواقع أول ما نواجهه في النص. لذا فله قوة كبيرة في جذب الانتباه... أما بالنسبة للروائي، فاختيار العنوان مهمة بالغة الأهمية في العملية الإبداعية، كونه قد يكتف موضوع الرواية في عبارة واحدة"¹³. هذا التكثيف هو الدعوة الحقيقية إلى القراءة والتأويل التي تنطلق في الواقع قبل فتح الرواية.

إننا وباستعارة سؤال فلسفي قد طرحه جاك دريدا، سنحاول تحليل عنوان الرواية التي بين أيدينا "صندوق الرمل"، أو بالأحرى سنحاول فهم دور العنوان داخل أحداث الرواية. يتساءل دريدا في كتاب (الحقيقة في الرسم): "ماذا يحدث عندما نُعنون عملاً فنياً؟"¹⁴. إن عنونة العمل الفني تعني بداية بداية هذا العمل، وبالتالي بداية قراءته وتأويلاته بالنسبة للقارئ، كما قد تعني نهاية العمل ونهاية تأويلاته وقراءاته بالنسبة للمؤلف الذي يضع عصارة العمل في هذا العنوان. ليس بالغريب والحال هذه، أن يكون للعنوان سلطة على القارئ والكتاب وعلى النص نفسه. قد يمتلك العنوان إمكانية فتح النص على اللانهاي أو إغلاقه في وجه تعدد القراءات.

ماذا يحدث عندما نشبه صحراء بندوق رمل؟ ما الذي قد يجعلنا نحصر مساحة شاسعة تغيب فيها التخوم في كلمة "صندوق"؟ هل تضيق الصحراء حقاً لتصبح بمثابة صندوق مقفل؟ ما الذي تريد عائشة إبراهيم قوله عندما تصف ليبيا فترة الاستعمار "بصندوق رمل حار"؟ كان أول استعمال لهذه العبارة "صندوق الرمل" على لسان الراوي وهو "الجندي ساندرو" بعد أن انتابه الرعب مما يحدث حوله، أثناء موقعة اتحد فيها العرب والأتراك العثمانيون، وتكبد فيها الإيطاليون الكثير من الخسائر؛ "لما شاهد جنود البرساليري يتفافزون كالفئران المذعورة، يطاردهم أهالي طرابلس في شوارع المنشية، ويخصونهم بسكاكين البقر"¹⁵. لقد ضاقت الصحراء على الغزاة في تلك اللحظة، وغابت كل التخييلات والدعايات التي عملت عليها الحكومة الإيطالية من أجل إقناع الناس بضرورة استعادة مجد روما القديمة. لم تكن أرض طرابلس جنة خضراء ستزود إيطاليا بما تحتاجه من الخيرات، بقدر ما أصبحت صندوق رمل أحكم قبضته على آمالها الاستعمارية. يمكن عدّ صندوق الرمل هذا رمزاً لمناهضة الاستعمار، فهي الجنة الموعودة قد تحولت إلى تابوت لجثث الجنود وطمعهم الأعمى. هذا وقد وصف ساندرو هذا الفضاء الصحراوي أيضاً بصندوق الرمل "الحارق"، تعبيراً عن الحرارة المرتفعة للمكان وعدم قدرة الجنود على مجابهة الحر، إذ تختلف البيئة الجنوبية بشكل كبير عن تلك التي في الشمال، فليبيا ورغم أنها بلد متوسطي إلا أن الغلبة فيها للمناخ الصحراوي، حتى في المناطق الساحلية منها. في الواقع إن الفضاء الصحراوي في رواية "صندوق الرمل" ليس فضاءً واحداً فقط، بل يمكن الوقوف على فضائين متباينين لهما حضور مشترك داخل الرواية، يتقاسمان زمن القص الروائي نفسه:

- **الأول: فضاء صحراء الخيلة الكولونيالية؛** وهي التي تصورها الإيطاليون قبل غزو طرابلس، صحراء تلي كل احتياجات إمبراطوريات القرن العشرين، وتعيد لروما تاريخها القديم باستعباد الأمم الضعيفة فيها. فهي هو السيناتور الإيطالي أنريكو كوارديني يخيل طرابلس لقراء صحيفة ليديا ناسونالي: "واحة طرابلس البانعة، المترعة بجبال الطبيعة الساحر، المياه المتدفقة بين السهول الخضراء، السنبال الذهبية تحت الشمس الصافية الخيرات الوفيرة التي تكفي الجميع... خيرات ليبيا من القمح والشعير وزيت الزيتون والمحاصيل... السفن الضخمة التي تحمل المنتجات من الشواطئ اللبية إلى روما العظيمة كل يوم"¹⁶. صحراء ليس لسكانها أي اعتراض على أخذها منهم، لأنهم الملاك الحقيقيون لها، إنها امتدادا لميراث روما العظيمة.

- **الثاني: فضاء صحراء المقاومة الديكولونيالية؛** وأول ظهور لهذه الفضاء كان لحظة وصول السفن الإيطالية إلى السواحل اللبية، ف"في اليوم التاسع والعشرين من سبتمبر ظهرت اليابسة بلون أصفر باهت، تخرج منها المآذن النخيلة وأشجار النخيل وبعض المباني البيضاء... الصورة العجائبية التي رسموها في خيالهم وصورتها لهم الصحف والقصاصد والأغاني، وأجرت من أجلها حملة من مئة ألف جندي... كانت صورة وهمية"¹⁷. وإضافة إلى زيف الوجه الجغرافي للصحراء عن تلك التي تخيلوها، فإن هذا الفضاء سيصبح فضاء حرب ضد الغزو الإيطالي؛ الصدمة مزدوجة.

يعمل العنوان على نقل الصورة السردية إذن من فضاء شاسع للتخييلات الغريبة حول أرض الجنوب إلى حيز ضيق تفرضه مقاومة سكان الأرض وفرضهم للتواجد الإيطالي في بلادهم. في الواقع إن الرواية تنتقل بشكل ظاهر من مقاومة أصحاب الأرض إلى مقاومة الأرض نفسها للتواجد الاستعماري. ولا تتوقف عند مقاومة الليبيين فقط، فالصحراء بصورتها المهيبة كانت أول عقبة أمام الجنود الإيطاليين الذين شعروا بالخيانة من قادتهم وصحافتهم التي لم تقدم لهم الصورة الحقيقية لهذه البيئة القاسية.

3. علاقة الشمال بالجنوب في الأدب ما بعد الكولونيالي

تروم هذه الدراسة الاستفادة من تداخل دراسات الجنوب الكبير في حقل النظرية النقدية المعاصرة، مع ما يتم التنظير له من الجدل الفلسفي الأخلاقي حول كتابة الاعتراف، وتجاوز الماضي عبر الصفح كوسيلة لرؤية مستقبل العلاقات شمال/جنوب وجنوب/شمال، في فضاء الكتابة ما بعد الكولونيالية؛ عبر قراءة في رواية "صندوق الرمل"، المحاكية للجدل الفلسفي القائم على فكري الاعتراف والصفح عن جرائم الماضي الاستعماري. والتي يمكن أن نطلق عليها وصف: الاعتراف الكامل لجندي إيطالي يدعى ساندرو بالحجاز التي ارتكبها رفقة زملائه في مدينة طرابلس، وكيفية اعتدائهم على الكبار والصغار، النساء والرجال، وكل من ليس إيطاليًا. فهذه الرواية التي تنطلق من حمية فكرة امتلاك جنة أرضية في الجهة الأخرى من البحر بالنسبة لجندي إيطالي تم تعبئته في سبيل استرجاع مجد روما القديمة، تستنقل

شيئا فشيئا إلى وصف الندم المصاحب لهذه الرحلة التي كشفت وحشية الفكرة الاستعمارية، فيأخذنا ساندرو بدوره في رحلة سردية يصف فيها المجازر التي ارتكبتها الجيش الإيطالي، مع رصد الحالة النفسية للجنود والمستعمرين على حد سواء، الأمر أشبه بعرض مسرحي يجمع الجلال والضحية في قاعة المعالج النفسي. إلى أن يصل إلى مرحلة الانهيار والتداعي، حيث يريد التكفير عن خطايه أمام راهب كنيسة.

ونطلق لفظ "الجنوب الكبير" في سياق هذه الدراسة على أنه "مفهوم وصفي تحليلي، ظهر في الآونة الأخيرة في مختلف العلوم الاجتماعية، للدلالة على شبكة أقاليم جيوسياسية، يقع معظمها في الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية، يجمعها الماضي الاستعماري... كما يُطلق أيضا على التعاونات السياسية المطلقة بصفة تدريجية (من الأسفل) وقد يقدم بدائل ممكنة للسيطرة التقليدية للشمال ممثلة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية"¹⁸. وتمثل صحراء ليبيا التي تتحدث عنها الرواية، أحد هذه الأقاليم ذات التاريخ الاستعماري؛ بينما تمثل الحملة الإيطالية في الجهة المقابلة الشمال الإمبريالي التوسعي.

3.1. صورة الجنوب في الخيال الشمالي؛ أو طرابلس في نظر الإيطاليين:

تظهر الرواية منذ بدايتها جديّة النزعة الاستعمارية التي تتمكك الإيطاليين عند ذكر طرابلس، المدينة الليبية، التي ليست في نظرهم سوى امتدادا لروما القديمة؛ وجب استعادتها بأي ثمن وضمها لإيطاليا الحديثة. لقد تم تأليف الأغاني، وإنشاد الأشعار، لحث الجنود على ركوب السفن والمشاركة في الغزو. تقول المغنية جيا جارسيندا: "طرابلس.. أرض الحب المسحورة.. ستغدو إيطالية بهدير المدفع.. اذهب أيها الجندي.. إيطاليا معك.. والمواسم الحلوة تنتظرك"¹⁹. لقد كان صيف إيطاليا من العام 1911، كما تظهر الرواية، مليئا بالدعاية للحرب واستعادة أجداد الماضي، نظرا للوضع الصعب الذي يمر به أغلب الإيطاليين بسبب الفقر وقلة الموارد، دون عدد كبير من المستعمرات، مثل جارتها: فرنسا، وبريطانيا وإسبانيا. لقد بدا الأمر حتميا. فبدل الذهاب في رحلة عبر المحيط الأطلسي إلى أمريكا للحصول على حياة كريمة، يقول شاعر البروليتاريا جوفاني باسكولي: "أدينا واحة طرابلس الحصبة التي بناها أجدادنا الرومان، وهي بانتظارنا، لنعيد مجدنا القديم. طرابلس كنز المحاصيل الهائلة والخصبة، إنها أرضنا الموعودة الحبلى بالخيرات التي ستحقق حلمنا المنتظر"²⁰.

إن هذه النظرة الواضحة التي تلخصها هذه العبارات ليست إلا دليلا على عمق الفكرة الاستعمارية في العقل الأوروبي وتاريخها الطويل، فليست أرض شمال إفريقيا في نظر الإيطاليين بهذا إلا امتدادا لتاريخها لروما القديمة؛ وجب عليهم استعادة السيطرة عليها والاستفادة منها. وليس سكانها وفق النظرة الدينية المسيحية إلا عصاة وجب محاربتهم، يقول الكاهن مخاطبا الجندي ساندرو: "ألا ترى أن قتال العرب ينضوي على كثير من الحب؟ أنت لو راجعت جيدا الوصايا العشر تجدها لا تختلف مع مفهوم الخطايا التي نخارها الآن عند العرب"²¹. ثم إن هذه الأرض في نظرهم تنتظر قلوبهم، فهي أرض عذراء دون شعب ذي مقومات حقيقية، إلا مجموعة من البرابرة الذين يجب طردهم منها أو إبقاؤهم تحت الحماية والرعاية، لعدم قدرتهم على ذلك بأنفسهم، حتى إن بعض التعليمات التي وصلت الجنود كانت تصف السكان الأصليين "بالأطفال"²² ويجب معاملتهم على هذا الأساس، بصفقتهم "تابعا" لا يحسن العيش وفق آمال روما القديمة وسنعمله ذلك؛ تشير الناقدة غياتري سبيفاك إلى فكرة مشابهة في كتابها "هل يستطيع التابع أن يتكلم" عند تعليقها على أحد كتب المؤرخ البريطاني إدوارد طومسون حول وصاية الإنجليز على الهنود: "ليس بإمكاننا إنصاف العينة المثالية لتبريره المهمة الحضارية للإمبريالية. ولا يمكن أن أجد في كتابه استياء مما يُطلق عليه بالقسوة المفيدة للمستعمر في الهند، وهو الذي يدّعي حب الهند!"²³. وبالطريقة نفسها يصف الإيطاليون قسوتهم في طرابلس بالقسوة المفيدة على الأطفال، لأجل إعادة مجد روما القديم. ولتحقيق أمنية الأرض الموعودة التي استعمرت بها أوروبا القارة الأمريكية.

سيكتشف الجنود الإيطاليون زيف آمالهم، وتتحطم آمالهم صورة الجنوب الساحرة التي لطالما عانقت أفكارهم "إذ أن الصورة العجائبة للسانتين والحداث التي رسموها في خيالاتهم وصورتها لهم الصحف والقصاصد والأغاني، وأجرت من أجلها حملة من مئة ألف جندي وستة وثلاثين ألف مدرعة، وخمسة وثمانين مدفعا، كانت صورة وهمية، وليس لها أي وجود على الإطلاق"²⁴. فطرابلس مأهولة بالناس، وليست أرضا عذراء بتلك الصورة العجائبة، وليس الأتراك وحدهم من يمثل تهديدا عليهم في رحلتهم هذه إلى مجد روما القديم. بل سيتوجب عليهم القتال ضد سكان الأرض

الأصليين أيضاً، لأنهم على حد تعبير أحد الجنود في رسالة له إلى معارفه في إيطاليا: "قيحون للغاية، بل يبدو من المستحيل أن تكون الطبيعة قد خلقت مثل هذه الكائنات الرهيبة، هؤلاء الناس الذين لم يعرفوا الحضارة أبداً يشبهون الحيوانات البرية في الغابة."²⁵ لقد صورت الرواية بدقة نظرة الاستعلاء الغربية للجنود الإيطاليين في حديثهم عن الليبيين والأتراك على حد سواء، وكيف ساهمت هذه النظرة في تحديد نوع العنف الممارس على المدنيين.

لقد تحدث مرارا منظرو المقاربات ما بعد الكولونيالية والديكولونيالية الأوائل كدوارد سعيد وفرانز فانون عن تشابه النظرة الغربية لأراضي المستعمرات، وعن الأسباب النفسية التي تجعلهم يطلقون أحكاما غيائية على أمة كاملة تقع في الجانب الآخر من البحر. تظهر رواية "صندوق الرمل" الأبعاد النفسية والتاريخية والثقافية لغزو الإيطاليين لليبيا؛ كمقدمة التفوق الملازمة للأوروبيين وتصنيفهم للرجل الأبيض في رتبة أعلى من بقية سكان العالم. وعقدة استرجاع أمجاد الإمبراطوريات القديمة والتوسع على حساب دول أخرى. وأسطورة الشرق الساحر بكنوزها التي تنتظر الغزاة البيض ومغامراتهم في هذه الأرض غير المتحضرة، التي وجب تعليم سكانها معنى الحضارة.

3. 2. العنف الاستعماري الشمالي في أرض الجنوب:

لم يكن شغف الإيطاليين باستعادة مجد روما الدافع الوحيد لارتكاب جرائمهم في ليبيا حسب الرواية التي بين أيدينا، فكرهم للإسلام والمسلمين واحتقارهم لأمة العرب كان أيضاً سببا قويا لذلك، فقد "غنى الجنود نشيدهم الصباحي: وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الملعونة، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن..."²⁶ لقد غذي العنف بدوافع متعددة: اقتصادية وتاريخية من جهة، ودينية وعرقية من جهة أخرى. ولدت كل هذه الدوافع حقدا كبيرا لدى الجنود الذين سيرتكبون الجريمة بعد الأخرى في حق الليبيين المسلمين، ولسان حالهم لسان حال مثقفيهم آنذاك، ففي كتاب "مع الإيطاليين في حرب طرابلس" الصادر بعد عام من غزو ليبيا، أي سنة 1912، يقول توليو أراسي: "العالم كله يعرف أن الرومان هم الذين مدنوا طرابلس، وأن الأتراك والعرب هم الذين هدموا تلك الحضارة"²⁷. ستصور الرواية مشاهد أول مجزرة ارتكبتها الغزاة الشماليون في مدينة طرابلس من عام 1911، لإعادة بعث مجد روما القديم، عبر رسالة "ساندرو" الجندي إلى أحد معارفه في إيطاليا "الآنسة كريستن"، يروي لها فيها أدق تفاصيل المجزرة: "أعلم أنه من الصعب أن يصدق الإيطاليون أن أبناءهم من أفراد الجيش الذين يرتدون بزات الشرف العسكرية قد تحولوا إلى ضباع"²⁸.

تقدم الحرب صورة جليلة وصداقة لساندرو حول أبناء وطنه. لقد اكتشف للتو عطشهم إلى العنف والدماء، ففي صبيحة ليلة المجزرة أخبره أحدهم: "الصباح وأنت منتصر، له طعم مختلف"²⁹. وهو "مشئت جدا" بسبب ذلك حسب تعبيره، ولا يعتقد أن الإيطاليين أبناء الحضارة والمدنية بإمكانهم تصديق شنيع أفعال جنودهم. إن التأمل العميق في عبارة كهذه يظهر مدى انغماس العقل الاستعماري في الاستعلاء، فالإيطاليون حسبهم، ورغم كل ما رآه، مرجع للحضارة ولا يمكنهم أن يكونوا بالوحشية والحيوانية نفسها التي وصف بها الليبيين سابقا، لقد دخل في حالة إنكار لما كان مشاركا فيه بنفسه. يواصل ساندرو: "داهنا البيوت، وأخرجنا السكان من غرف نومهم، وسقناهم إلى المشانق... ونفذ الإعدام في العرب الذكور فوق سن الثالثة عشرة... أجبرنا النساء على السير فوق جثث أزواجهن وآبائهن... ثم أخيرا أطلقنا علمين النار جميعا. لقد كان مهرجان إعدام، حيث بإمكانك أن تشاهدي طفلا بفروة رأس مسلوخة وكتلة دماغه متناثرة على الأرض... صبايا مشوهات ومقطوعات الأنداء والأطراف..."³⁰. لم يكن عنف الجنود منصبا على المقاتلين من العرب كما تبين رسالة ساندرو، لقد هاجم الجنود المدنيين في بيوتهم، وتكلموا بجشهم، ولا فرق في ذلك عندهم بين امرأة أو رجل، كبير أو صغير، فكلهم في النهاية ليسوا بأبناء روما، والتي أتى الجنود لإعلاء شأنها من جديد في عصر الإمبراطوريات الاستعمارية. لقد دفعت النظرة الفوقية الإيطاليين إلى احتقار العرب ومن ثم استباحة قتلهم. ولا تمثل أحداث الرواية سردا خياليا بقدر ما تمثل تاريخيا حقيقيا احتفظت به كتب الإيطاليين عن تلك الفترة. ففي كتاب أراسي السابق نقلنا عن مذكرات جندي إيطالي يقول: "لقد قتلنا عشرة من العرب مقابل كل قتيلا منا"³¹. إن ميزة الروايات التي تعيد كتابة الماضي هي القدرة على إخراج التاريخ من سجلات ثابتة إلى سرد شيق متحرك؛ يتم تزويد الشخصيات فيه بأبعاد نفسية وفلسفية تبعدها عن جمود التاريخ، لوضع القراء أمام حيرة تأويلية تعيد نبش التاريخ وتأمله.

3. 3. الكتابة للسان الآخر، جدل الاعتراف والصفح بين الشمال والجنوب:

تسمح القراءات ما بعد الكولونيالية للأدب، أو فنون ما بعد الاستعمار عموماً، إذا ما اقترنت بمفهوم الجنوب الكبير، بالاجوء إلى عدد لا حصر له من المجالات المعرفية، ما يجعل منها حقلاً بينياً، يناقش فيه الأدب بالاعتقاد على علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ، وحتى الأخلاق؛ "فأن تروي هو أن تنشر فضاءاً متخيلاً أمام تجارب فكرية يمارس فيها الحكم الأخلاقي بالصيغة الشرطية الافتراضية"³²، على حد تعبير بول ريكور.

وعلى هذا المستوى الاشكالي للإبداع "يقوم السرد بوظيفتين: تصور الماضي كما كان، وإعادة إبداعه على النحو الذي يجب أن يكون عليه، ومع ضرورة أن يصاحبه موقف أخلاقي يسمح لنا بأن نفرق بين ما يتعين نسيانه، وما يجب علينا تذكره، وبالطبع فإن كل حديث عن الذاكرة يهدف إلى الإسهام في الحاضر وفي عملية التذكير"³³. فأما تصوير الرواية للماضي فهي نقل للجرائم التي ارتكبتها الاحتلال من السجلات التاريخية والمذكرات الحربية إلى النص الأدبي، وأما لمسة إعادة كتابته وفق أطر أخلاقية يستدعيها الحاضر والعرف الإنساني، فتمثلت في تلك الفواصل السردية التي يخرج بها الجندي "ساندرو" من سردية "مجد روما القديمة" إلى لعن الوضع البائس الذي يعيشه في "صندوق الرمل الحارق" هذا، وشدة استغرابه من وحشية زملائه الجنود، وشفقته على الصبية والنساء العرب الذين قتلهم الجنود دون رحمة بأشنع الطرق، إنها سردية الاعتراف.

إن قراءة فاحصة لرواية "صندوق الرمل" لن تدع مجالاً للشك بأن السرد فيها ليس لمجرد السرد فحسب، ولا لمجرد تأريخ الغزو الإيطالي لليبيا؛ لعدة أسباب؛ أولاً: البطل داخلها يمثل أحد الجنود الإيطاليين، والكتابة ليبية تروي أحداثاً مجازر التي ارتكبتها الإيطاليون في بلادها. لم يكن هذا الاختيار اعتبارياً إذا ما تأملنا عمق مسألة ذاكرة الآخر عبر المزج بين الذاكرة الجماعية لليبيين والتاريخ الرسمي الإيطالي في النص الروائي الذي بين أيدينا. ويمكننا أن نطرح مجموعة من الأسئلة على هذا النص الروائي، فقد كتب البطل رسالة طويلة يشرح فيها ما وقع من مشاهد مرعبة أثناء احتلالهم لمدينة طرابلس. ثانياً: لقد رافق البطل وهو جندي إيطالي كان يعيش حياة بسيطة في مدينة ميلانو، شعور مستمر بالذنب من شنيع أفعاله رفقة زملائه طيلة أحداث الرواية؛ والتي تعد وثيقة اعتراف بجرائم الحرب التي ارتكبتها، يصف بعضها قائلاً: "كان يوماً لا يصدق العقل، ما إن أطلق كنيفاً الإشارة في ساعة الصباح حتى انطلق مخرجان الدم... تجاوزنا التماسوين وحشية، إذ إننا بعد تنفيذ الإعدام، أجبرنا النساء على السير فوق جثث أزواجهن وأبائهن"³⁴، إلى درجة تمنيه "أن يعود إلى ميلانو بلا ذاكرة، بلا عواطف، أو حتى بلا جسد"³⁵.

ما يبتغيه السرد، بعد كل ما سبق، هو لحظة الاعتراف "الذي به يأخذ المذنب على عاتقه خطاه، مستبطناً هذه الطريقة اتهاماً يستهدف بعدها الصانع من وراء الفعل"³⁶. أن يتذكر الشال مثالبه، والمآسي التي ارتكبتها وسمح بها في الجنوب، وأن يطلب العفو والصفح عن كل ما قام به. ولهذا سيعترف "ساندرو" تخلياً أمام راهب كاثوليكي بعد نهاية المجازر: "لم يكن في نيتي أن أصبح قاتلاً، ولا جندياً، أمي كانت امرأة متدينة جداً، أخي الأكبر أيضاً، وأبي"³⁷. جرت كل هذه الأحداث منذ بدايتها باللغة العربية، لغة الليبيين. وتحدث الإيطاليون بلسان سكان الجنوب طيلة الرواية. لقد "نقاسم" الإيطاليون عبر هذه الرواية "لسان الآخر"³⁸، وهي أحد وسائل طلب الصفح بتعبير دريدا، فإن تشارك الآخر لغته يعني أنك تحاول الامتزاج به في "الأنا" أو "النحن" التي تمثلها.

غير أن الرواية لا تكتفي بالحصول على لحظة الاعتراف وطلب الغفران، بل تنخرط ضمن تداع سردي متواصل في مسألة ما لا يمكن أن يشملها أو يسعه الصفح؛ وهي الجرائم ضد الإنسانية، جرائم أمة ضد أخرى: "أما ساندرو فقد وقف بعيداً ذاهلاً في صمته حاملاً إحساس الحسة نياية عن أمة إيطاليا بعصورها جميعها الوسطى والنهضوية والتنويرية"³⁹. لقد عملت عائشة إبراهيم منذ بداية الرواية على إظهار تجييش مشاعر الإيطاليين لغزو طرابلس، وكيف استقبل الجندي ساندرو الإعلانات والخطابات والأغاني الاستعمارية التي تستذكر أمجاد الماضي، قبل الغزو، وأثناءه. وكيف تغيرت نظرته للسكان المحليين من كونهم مسالمين إلى وحوش ضارية يجب القضاء عليها. وكيف تأمل الجنود الإيطاليين من حوله أثناء الحرب وقد تحولوا إلى آلات قتل دون رحمة، إلى استيعابه في الأخير أن ردة فعل الليبيين تجاه الإيطاليين ومقاومتهم فعل مبرر في أعرف الحرب.

4. خاتمة:

تمثل أهم النتائج المتوصل إليها بعد الدراسة في ما يلي:

- يمكن عدّ أدب الصحراء جزءاً من أدب الجنوب الكبير لارتباطه بجغرافيا وتاريخ منطقة واسعة من بلدان شمال إفريقيا، والتي لطالما وصفت بدول العالم الثالث، وهو الفضاء الذي أصبح يطلق عليه في العقد الأخير في أغلب الأبحاث والدراسات النقدية: الجنوب الكبير؛ كمصطلح ذي حمولة تاريخية أكبر في الدلالة على اشتراك الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية في ماضيه الاستعماري، ومآسيه التي خلقتها هيمنة دول الشمال، وكذا في مستقبله المشترك في ظل التحديات المشتركة.

- تمثل كتابة الصحراء في دول شمال إفريقيا سجلاً أنثروبولوجياً لحياة الإنسان في هذه البيئة القاسية، تُعاد إليه الحياة في ظل مستجدات الساحة الثقافية العالمية، فيتم توظيف الصحراء في كتابات ما بعد الاستعمار، وفي رحلات المهاجرين عبر الحدود، ومشاكل اللاجئين، ورصد الإنسان والبيئة الصحراوية في صراعها مع مظاهر العولمة والشركات متعددة الجنسيات.

- تمثل رواية "صندوق الرمل" دجماً سردياً بين أدب الصحراء من جهة وأدب ما بعد الاستعمار من جهة أخرى؛ فنرى الروائية وهي تعمل على وصف ديكتاتورية الفضاة الصحراوية بجانبه البشري والطبيعي، وما لقساوة البيئة والمناخ من فضل في ردع الخيلة الاستعمارية، والحملة الفعلية التي قادها الإيطاليون بغية استرجاع إمبراطورية روما القديمة.

- تصور الرواية العنف الاستعماري على سكان مدينة طرابلس، والمبررات التاريخية والنفسية والاقتصادية وحتى الأخلاقية التي تُمسح بها الإيطاليون في حملتهم البحرية على مدينة طرابلس الليبية، ويظهر كل هذا في شخصية الجندي ساندرو وبقية الجنود، في ساحة الحرب أثناء النزول إلى مدينة طرابلس الليبية وفي إيطاليا قبل ركوب السفن الحربية المتجهة جنوباً.

- تنخرط الرواية بشكل واضح في مساءلة أخلاقية لمفهوم الصفح والاعتراف، وضرورة الوقوف واستذكار ما لا يقبل الصفح. عبر إحياء الذاكرة الجماعية للمجازر التي ارتكبتها الإيطاليون في حق الليبيين العزل من النساء والأطفال والشيوخ. فالرواية في الواقع وثيقة اعتراف لجندي إيطالي، تنطلق من حماس جماعي لرؤية وامتلاك جنة أرضية تعيد المجد لإيطاليا وتضعها في رتبة الإمبراطوريات الأوروبية الاستعمارية، لتتحول شيئاً فشيئاً إلى ندم فعلي، يصاحب البطل إلى أن يعترف أمام قس كنيسة بجرائم الحرب التي ارتكبتها، جرائم لا يمكن غفرانها ولا تجاوزها.

قائمة الإحالات:

¹ Aidan Tynan, The desert in Modern Literature and Philosophy, Edinburgh University Press, UK, 2020, p3.

² Umberto Eco, Six walks in the fictional woods, Harvard University Press, USA, 8th pr, 2004, p70.

³ سليمان بشير ديانى وجان لو أمسيل، إفريقيا أفقا للفكر في مساءلة الكونية وما بعد الكولونيالية، تر: فريد الزاهي، دار معنى للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 2021، ص 27.

⁴ Stefano Magni et autres, La réécriture de l'Histoire dans les romans de la postmodernité, Press universitaires de provence, France, 2015, p45.

⁵ Tim Woods, African pasts (Memory and history in African literatures), Manchester University Press, UK, 2007, p13.

⁶ Carl Schmitt, The concept of the political, Tr by: George Schwab, The University of Chicago Press, Chicago, USA, 2007, p28.

⁷ وحيد بن بوعزيز، بؤس النظرية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2023، ص 68.

⁸ Pankaj Mishra, From the ruins of empire, Anchor Canada, Canada, 2012, p45.

⁹ Carl Schmitt, Theory of the Partisan Intermediate Commentary on the Concept of the Political, Tr by G. L. Ulmen, Telos Press Publishing, USA, 2007, p89.

¹⁰ عبد الرحيم جبران، علبة السرد (النظرية السردية: من التقليد إلى التأسيس)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص48.

¹¹ Bill Ashcroft and Others, The Empire Writes Back, Routledge, New York, 2nd ed, 2002, p180.

¹² Sneharika Roy, The Postcolonial Epic, Routledge, New York, 2018, p28.

¹³ David Lodge, The Art of Fiction, Viking Penguin, USA, 1993, P193, 194.

¹⁴ Jacques Derrida, La Vérité en Peinture, Flammarion, France, 1978, p28.

¹⁵ عائشة إبراهيم، صندوق الرمل، منشورات المتوسط، إيطاليا، 2022، ص124.

¹⁶ نفسه، ص49.

¹⁷ نفسه، ص58 و97.

¹⁸ Véronique Tadjo, The culture of dissenting memory: Truth commissions in the Global South, Routledge, New York, USA, 2019, p xi.

¹⁹ عائشة إبراهيم، صندوق الرمل، ص13.

²⁰ نفسه، ص33.

²¹ نفسه، ص157.

²² نفسه، ص45.

²³ Rosalind C. Morris and Gayatri Spivak, Can The Subaltern Speak? Reflections On The History Of An Idea, Columbia University Press, USA, 2010, p61.

²⁴ عائشة إبراهيم، صندوق الرمل، ص97.

²⁵ نفسه، ص129.

²⁶ نفسه، ص130-131.

²⁷ توليو آرسى، مع الإيطاليين في حرب طرابلس، تر: منصور عمر الشتيوي، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ط1، 1972، ص10.

²⁸ عائشة إبراهيم، صندوق الرمل، ص137.

²⁹ نفسه، ص140.

³⁰ نفسه، ص137-138.

³¹ توليو آرسى، مع الإيطاليين في حرب طرابلس، ص76.

³² بول ريكور، الذات عينها كآخر، المنظمة العربية للترجمة، تر: جورج زيناتي، بيروت، لبنان، 2005، ص343.

³³ الزواوي بغورة، الاعتراف من أجل مفهوم جديد للعدل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2012، ص48.

³⁴ عائشة إبراهيم، صندوق الرمل، ص137-138.

³⁵ نفسه، ص154.

³⁶ بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، تر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2009، ص708.

³⁷ عائشة إبراهيم، صندوق الرمل، ص156.

³⁸ جاك دريدا، الصغ- ما لا يقبل الصفح وما لا يتقادم، تر: مصطفى العارف وعبد الرحيم نور الدين، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط1، 2018، ص70.

³⁹ عائشة إبراهيم، صندوق الرمل، ص189.

قائمة المصادر والمراجع:

- الزواوي بغورة، الاعتراف من أجل مفهوم جديد للعدل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2012.

- بول ريكور، الذات عيناها كآخر، تر: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005.
- بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، تر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2009.
- توليو آرسى، مع الإيطاليين في حرب طرابلس، تر: منصور عمر الشتيوي، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ط1، 1972.
- جاك دريدا، الصفع- ما لا يقبل الصفع وما لا يتقادم، تر: مصطفى العارف وعبد الرحيم نور الدين، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط1، 2018.
- عائشة إبراهيم، صندوق الرمل، منشورات المتوسط، إيطاليا، 2022.
- عبد الرحيم جبران، علبة السرد (النظرية السردية: من التقليد إلى التأسيس)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2013.
- سليمان بشير ديابي وجان لو أمسيل، إفريقيا أفقا للفكر في مساءلة الكونية وما بعد الكولونيالية، تر: فريد الزاهي، دار معنى للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 2021.
- وحيد بن بوعزيز، بؤس النظرية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2023.
- Aidan Tynan, The desert in Modern Literature and Philosophy, Edinburgh University Press, UK, 2020.
- Bill Ashcroft and Others, The Empire Writes Back, Routledge, New York, 2nd ed, 2002.
- Carl Schmitt, The concept of the political, Tr by: George Schwab, The University of Chicago Press, Chicago, USA, 2007.
- Carl Schmitt, Theory of the Partisan Intermediate Commentary on the Concept of the Political, Tr by G. L. Ulmen, Telos Press Publishing, USA, 2007.
- David Lodge, The Art of Fiction, Viking Penguin, USA, 1993.
- Pankaj Mishra, From the ruins of empire, Anchor Canada, Canada, 2012.
- Rosalind C. Morris and Gayatri Spivak, Can The Subaltern Speak? Reflections On The History Of An Idea, Columbia University Press, USA, 2010.
- Umberto Eco, Six walks in the fictional woods, Harvard University Press, USA, 8th pr, 2004.
- Sneharika Roy, The Postcolonial Epic, Routledge, New York, 2018.
- Tim Woods, African pasts (Memory and history in African literatures), Manchester University Press, UK, 2007.
- Véronique Tadjo, The culture of dissenting memory: Truth commissions in the Global South, Routledge, New York, USA, 2019.
- Jacques Derrida, La Vérité en Peinture, Flammarion, France, 1978.
- Stefano Magni et autres, La réécriture de l'Histoire dans les romans de la postmodernité, Press universitaires de provence, France, 2015.